



كلية اللغة العربية بأسسيوط
المجلة العلمية

جهود العلامة محمد بن قانصوه الأدبية مع تحقيق موشحته المخطوطة

إعداد

د/ محمد فتحي عبدالفتاح الأعصر

عضو هيئة التدريس بقسم اللغة العربية
الكلية الجامعية بترية، جامعة الطائف

(العدد التاسع والثلاثون)

(الإصدار الأول - الجزء الأول)

(١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م)

جهود العلامة محمد بن قانصوه الأديبة مع تحقيق موشحته المخطوطة

محمد فتحي عبدالفتاح الأعصر .

قسم اللغة العربية- الكلية الجامعية بترية- جامعة الطائف - السعودية .

البريد الإلكتروني: dr.elasar@gmail.com

المخلص :

يدور هذا البحث حول الأديب محمد بن قانصوه- أحد أدباء مخزومي الدولتين المملوكية والعثمانية- الذي كان حلقة وصل مهمة بين العصرين، والشاهد العيان الرئيس على انتهاء دولة المماليك، وقيام دولة العثمانيين، فكان قريباً من السلطة السياسية والإدارية في البلاد آنذاك. إلا أن الباحثين والمترجمين غفلوا عن ذكره، أو التعريف بأعماله الأديبية المهمة- التي رصدت في أثنائها الحياة المعيشية في فترة التحول السياسي بين العصرين-، فكان مصيره الإهمال كغيره من أدباء وشعراء تلك الحقبة التاريخية المهمة. لذلك قمتُ بالترجمة له، والتعريف بأعماله الأديبية المخطوطة، وأماكن حفظها في مكتبات العالم، وتتبع أشعاره وقصائده الواردة عند ابن إياس- صديقه- في كتابه (بدائع الزهور في وقائع الدهور)، وبينت أغراضها، ورصدتُ موقف ابن قانصوه من الحياة المعيشية في عصره. وختمت بحثي بتحقيق موشحته المخطوطة في مدح ملك الأمر "خاير بك" كما وسمها بذلك، وقدمت لها بمقدمة كشفت فيها عن أهمية فن الموشحات، وتطوره في العصر العثماني عن ذي قبل.

الكلمات المفتاحية : محمد بن قانصوه - الأدب المملوكي والعثماني- الأمير خاير

بك- الموشحات - المخطوطات

The efforts of the scholar Muhammed bin Qansuh literary with the fulfillment of his manuscript

Muhammad Fathi Abdel Fattah Al-Asar
Department of Arabic Language - Turba University College -
Taif University - Saudi Arabia
Mail : dr.elasar@gmail.com

Abstract

This research revolves around the writer Muhammad ibn Qansuh - one of the writers of the Mamluk and Ottoman countries , who was an important link between the two ages. However, researchers and translators overlooked his mention, or the definition of his important literary writings - during which life was monitored in the period of political transition between the two eras - so his fate was negligence and his writers and poets of that important historical era. So I arranged for him, defined manuscript literary make-up, preserved it in the libraries of the world, and tracked his poems and poems contained by Ibn Iyas - his friend - in his book (Bada'i al-Zuhur fe Waqe'a al-Dohur), explained its purposes, and Ibn Qansoh's position on the life of his life was completed. I concluded my research by realizing his manuscript in his praise of the king of the order "Khair Bey" as he called it, so that I would have revealed in it the importance of the art of muwashahat, and its development in the Ottoman era from before.

Keywords : Muhammad ibn Qansuh - Mamluk and Ottoman literature - Prince Khair Bey - Al-Muwashahat – Manuscripts

تقديم

انطلاقاً من رؤيتي بأهمية الشاعر محمد بن قانصوه، ومؤلفاته المخطوطة، وعصره - وتحديدًا المدة الزمنية التي عاش فيها، وهي فترة التحول السياسي والمعرفي بين العصرين المملوكي والعثماني -، ولا سيما ما لمستته من تغير في الرؤى والمواقف لديه، ولدى الأدباء آنذاك، تبعًا للحالة السياسية، والضرورة التي تتطلبها المعيشة مع الواقع الراهن في تلك الفترة مع السُّلطة الحاكمة، والمهيمنة على مقاليد الأمور في البلاد.

ولذا صرتُ أفتش عن النُصوص الأديبة المخطوطة التي تركها الشعراء والأدباء على وجه الخصوص، والمؤرخون والكتاب على وجه العموم، باعتبار أن شعر الشعراء يُعدُّ سجلًا حافلًا للأحداث السياسية والاجتماعية والمعيشية، وشاهدًا على عصرهم، ومعبرًا عن لغة بيئتهم، وما يجول بها من أحداث ومؤثرات حياتية. وقد وقع اختياري على الأديب محمد بن قانصوه؛ لإبراز جهوده الأدبية والترجمة له، وإلقاء الضوء على إسهاماته الإبداعية التي تركها لنا، وغفل عنها معاصروه، وصممت عنه وعنها كتب التراجم والتاريخ.

وكذلك تلمستُ موقف الأديب محمد بن قانصوه من الحكمين المملوكي والعثماني من خلال شعره، وهل تغير موقفه - بالفعل - بتغير السُّلطة الحاكمة أم لا؟.

وأبنتُ عن صورة مصر والعالم العربي الماثلة في مخيلته باعتباره أحد أدباء مخضرمي الدولتين، وأحد حلقات الوصل المهمة بينهما، وشاهد عيان رئيس على انتهاء دولة المماليك، وقيام دولة العثمانيين.

وفي هذا المقام - أيضًا - حققتُ موشحته المهمة التي مدح فيها ملك الأمراء (خاير بك)، المتوفى عام (ت ٩٢٨هـ = ١٥٢٢م) - وهو أولٍ لمصر بعد

إخضاعها للحكم العثماني - لنقف على طبيعة كتابتها وخصائصها، ومعرفة الروح الإبداعية السائدة آنذاك.

خطة البحث:

يقوم هذا البحث على (تمهيد، وخمسة محاور، وخاتمة).

أما التمهيد؛ فتحدثت فيه عن عصر الشاعر، وأهميته التاريخية والمعرفية بالنسبة لنا.

وأما المحور الأول؛ فتناولت فيه الترجمة للشاعر محل الدراسة، ومؤلفاته.

والثاني: بيّنت فيه أغراضه الشعرية، وأماكن تواردها في كتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) لابن إياس، ورصدت موقفه من الحياة المعيشية في عصره.

والثالث: تحدثت فيه عن فن الموشحات عامة، وموشحة ابن قانصوه المخطوطة في مدح الأمير خاير بك خاصة.

والرابع: وصفت فيه النسخة المخطوطة للموشحة، ومكان حفظها، ومنهجي في تحقيقها.

والأخير: ختمته بتحقيق النص المخطوط.

وأنتهيت البحث بخاتمة: أبرزت فيها أهم ما وصلت إليه. ثم ثبتت بالمخطوطات والمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها.

منهجية البحث:

يقوم البحث على منهجين مهمين، الأول: المنهج التحليلي النقدي حول شعر الشاعر وعصره، والثاني: المنهج العلمي المعروف في تحقيق النص الأدبي المخطوط.

حدود البحث:

تنطلق من محاولة إيجاد مقاربة لمولد الشاعر ووفاته - المجهول بالنسبة لنا - التي وقعت تقريبًا في فترة التحول السياسي بين العصرين المملوكي والعثماني - أي بعد منتصف القرن التاسع الهجري حتى ما قبل منتصف القرن العاشر الهجري - وهي المدة الزمنية التي تمثل حياة المؤلف وعصره.

والله ولي التوفيق ،،،

تمهيد

من سُنن الله- عزَّ وجل- في كونه اختلاف الليل والنهار، وتبدل الأحوال من حال إلى حال؛ من الضعف إلى القوة، ومن القوة إلى الوهن، ومن الانحدار إلى الازدهار.

ومن تعاقب الدُول بعضها إثر بعض، فتبدأ دولة قوية فتية، تشارك في صنع الحضارة الإنسانية في كافة نواحيها الحياتية والمعيشية ثم تؤول إلى الوهن والانحدار، والذبول لتحلَّ محلها دولة قوية ناهضة قادرة على العطاء والسير في ركب الحضارة الإنسانية.

وهذا ما آلت إليه دولة المماليك من الانحدار والاندثار بعد قوتها وأوج عظمتها؛ لتقوم على أنقاضها دولة قوية ناشئة، وهي دولة العثمانيين بقيادة سلطانهم المَعظَّم سليم الأول العثماني (ت ٩٢٦هـ = ١٥٢٠م) الذي هزم السُلطان قانصوه الغوري (ت ٩٢٢هـ = ١٥١٦م) وعسكره في معركة وصفها المؤرخون بأنها كانت تاريخية ومصيرية لكلا الطرفين المتناحرين، وهي معركة «مرج دابق سنة ٩٢٢هـ = ١٥١٦م»^(١). والتي راح خلالها آلاف القتلى من الطرفين، ومُنِي الجيش

(١) أورد ابن إياس حيل ابن عثمان (سليم الأول) وخداعه ومكره بالسلطان قانصوه الغوري، وخيانتته إياه بعدما قدم له الأمان، وعمل ما في وسعه على إبطال همة السلطان قانصوه لمنع محاربتة، مبدئياً طلب الصلح، ثم انقض عليه وعلى جنده قتلاً وفتكاً، فكانت بداية النهاية للدولة المملوكية. ينظر بالتفصيل حوادث عام ٩٢٢هـ: بدائع الزهور في وقائع الدهور: محمد بن إياس (ت ٩٣٠هـ = ١٥٢٣م)، تحقيق/ محمد مصطفى، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، ط ٣، ١٩٨٤م، ٥: ٦٠ وما بعدها.

المصري بهزيمة فادحة قُتل فيها السلطان قانصوه الغوري، ووقع مغشياً عليه تحت سنايك الخيل العثماني^(١).

وبهذا كان انتهاء دولة المماليك أمراً متوقعاً، فكان قاب قوسين أو أدنى بعد اعتلاء السلطان المملوكي طومان باي (ت ٩٢٣هـ = ١٥١٧م) سدة الحكم في مصر^(٢)، ومحاولته الدعوية إصلاح شئون البلاد الإدارية والمعيشية، وإقرار نظم العدالة الاجتماعية الناجزة بين الناس، ولكن هيهات هيهات؛ فقد فات الأوان بعدما تدهور أحوال البلاد والعباد في العصر المملوكي.

(١) ما ارتكبه السلطان سليم الأول وجنده من الجرائم والقتل في حق مصر وأهلها لا يعد ولا يحصى، فلم يرع فيها إسلاماً ولا مسلمين. فابن إياس المؤرخ كان شاهداً على عظم المأساة التي حلت بمصر وخرابها على أيديهم. ينظر بدائع الزهور، ٥: ١٥٢ وما بعدها.

(٢) طومان باي: أبو النصر، الملقب بالملك الأشرف: من ملوك الجراكسة بمصر، وهو ابن أخي قانصوه الغوري، واستعد للقتال بعد موت قانصوه الغوري. ولما توجه السلطان سليم إلى مصر، وقرب منها قابله الملك الأشرف بالعساكر المصرية، فقاتله قتالاً شديداً، ثم انهزم طومان باي، وهرب هو حتى عدى النيل إلى طرف بلاد السودان، فبعث السلطان سليم إلى مشايخ العربان بمسكه، ووعدهم على ذلك بأشياء حتى ظفر به ابن عمر أمير الصعيد، فأتى به إلى السلطان، فأمر به فصلب على باب زويلة، وبه انقطعت الجراكسة، فكانت مدة ملكهم ١٣٢ سنة. ينظر ترجمته حاجي خليفة: سلم الوصول إلى طبقات الفحول، تحقيق/ محمود عبد القادر الأرناؤوط، تقديم/ أكمل الدين إحسان أوغلي، مكتبة إرسیکا، إستانبول- تركيا، ٢٠١٠م، ٢: ١٨٧؛ الزركلي: الأعلام، ٣: ٢٣٣-٢٣٤.

ورغم حب المصريين للسلطان طومان باي إلا أن ذلك لم يمنع من انهيار دولته وزوالها إلى الأبد بعدما شنقه العثمانيون على باب زويلة - أحد أبواب القاهرة الشهيرة^(١).

وانطلاقاً من النظرة التوسعية من قبل الدولة العثمانية، والقائمين على أمورها - والتي لم تكتف بمصر وبعض بلاد العرب، بل امتدت إلى بعض الدول الأوروبية، وأدخلتها تحت حكمها، كاليونان والصرب والمجر وغيرها - باتت تلك الدولة في صراع مستمر، ودائم مع أعدائها الذين لم يدخروا جهداً في إذكاء نار الفتن والمؤامرات الداخلية، علاوة على المؤامرات الخارجية. مما أدى إلى العصف بكيان الدولة العثمانية والإضعاف من قوتها وسيطرتها. فكان من أخطر الثورات الداخلية الكثيرة التي قام بها معظم سكان تلك البلدان من أجل الاستقلال، وتحدي الحكومة المركزية في إسطنبول^(٢).

وعلاوة على ذلك فإن سوء الإدارة المركزية، وتهميش دور الولايات، والتأخر العلمي والثقافي مهّداً للتفتت في عضد تلك الدولة الكبرى وانهيار كيانها.

ومن الشائع بين علماء التاريخ أن الحملة الفرنسية على مصر سنة (١٧٩٨م إلى ١٨٠١م) كشفت عن هذا التأخر العلمي والثقافي والحياتي في

(١) في واقعة مقتل السلطان طومان باي وما جرى فيها، ينظر بالتفصيل بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥: ١٧٦ - ١٧٧.

(٢) نظم كثير من الأدباء والشعراء في هذا العصر أشعاراً كثيرة قيلت في تلك الثورات الداخلية التي هددت الدولة العلية العثمانية، فالبعض مدح تلك الثورات وشجعها، والبعض عنفها وحقر من شأنها ومن خطرهما. ينظر في ذلك كتاب: "شعر الثورات الداخلية في العهد العثماني": زينب بيبره جكلي، دار الضياء - عمّان - الأردن، ط ١، ٢٠٠٠م.

العصر العثماني، وكانت دليلاً بارزاً على سوء إدارة القائمين على تلك البلاد وأمورها.

ولا سيما ما فعلته في إزاء البلدان العربية الواقعة تحت حكمها، والمسيطرة على مقاليد أمورها- من تفشي الفساد والرشوة والفقر والأوبئة، وتأخر الصناعات والزراعة والعلم، وسيطرة الجهل على الناس واعتلاء الجهال لسدة الحكم ومقاليد الأمور^(١)، حتى صار الناس يعانون من ضنك قاتم في شتى المناحي المعيشية - إلا «أن الدولة العثمانية كانت المدافع الحقيقي عن بلاد الإسلام والمسلمين لمدة

(١) من ذلك ما كتبه العلامة الأديب محمد الفارسي، ناقداً قضاة عصره وساخرًا من جهلهم

وظلمهم، وافتقار العدالة على أيديهم:

في مصر من القضاة قاض ولهُ
إن رُمت عدالة فقم عدلُهُ
في أكل مواريث اليتامى ولهُ
من عدلُهُ دراهمًا عدلُهُ

ومما كتبه الأديب بهاء الدين العاملي (ت ١٦١٢م) - صاحب كتاب "الكشكول" - ناقداً ومهاجماً

سوء الأحوال في مصر، وانتشار الفساد والرشوة وضياع العلم والأخلاق:

من شاء أن يحيا سعيداً بها
فليدع العلم وأصحابه
وليترك الـدرس وتـدريسه
إلام يـا دهرُ وحتى متى
تُحقق الآمال مُستعطفًا
وهكذا تفعل في كل ذي
منعمًا في عيشة راضية
وليجعل الجهل له غاشية
والنحو والتفسير في زاوية
والمـتن والشـرح مع الحاشية
تُشقى بأيامك أياميه
وتوقع النقص بآماليه
فضيلة أو هممة عاليه

ينظر شهاب الدين الخفاجي (١٠٦٩هـ): ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، المطبعة العثمانية-

القاهرة، سنة ١٣٠٦هـ، ١٠٤، ٢٨٣؛ المحببي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي

عشر، ٣: ٤٤٢.

تزيد على ثلاثة قرون، وجنبتهم مخاطر الحملات الصليبية والشيعية الصَّفوية، وقامت بفتوحات كثيرة داخل أوروبا نفسها، وكان لها الفضل الأكبر في انتشار الإسلام هناك.. ومحاولتها المستميتة في الحفاظ على فلسطين والقدس الشريف ضد الحركات الصهيونية.. ووحدت شعوب العالم العربي الإسلامي في بوتقة واحدة، وتحت حكم واحد، وسمحت بانفتاح الولايات التابعة لها بعضها على بعض، وكانت حرية التنقل مكفولة للأفراد دون قيد أو شرط يُذكر»^(١)، ومن يقرأ كتب التراجم والطبقات، والتاريخ والرحلات سيقف على تلك الحقيقة جيداً.

وأثرت تلك النظرة السائدة حول العصر العثماني وطبيعته نفورًا بين الباحثين والدارسين من دراسته في مختلف المناحي الحياتية.

ولم تقف هذه النظرة عند هذا الحد بل تجاوزته لتعمم على طلاب المراحل التعليمية المختلفة، فتناول أدبه وتاريخه بالإساءة أو بالأحكام المغلوطة القائمة على غرض الطرف عن دراسته والتقليل من أثره وأهميته.

إلا أنه ومع ذلك فإن هذا العصر «وبالتحديد منذ أوائل القرن السادس عشر، وحتى أواخر القرن الثامن عشر، يحتاج إلى مزيدٍ من الدراسات العلمية الجادة التي تعتمد على المصادر الجديدة والمختلفة، والتي تعالج هذه المدة، ليس بمفاهيم ومعايير القرنين التاسع عشر والعشرين، وإنما بسياقها التاريخي وبمعايير

(١) محمد فتحي عبد الفتاح: النشر الفني في العصر العثماني " في مصر والشام" - دراسة تحليلية ؛ رسالة دكتوراه ، مخطوط كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، عام ٢٠١٣م، ج - د.

زمانها ودون أحكام عامة أو مسبقة، أو متأثرة بروى استشراقية أو غيرها»^(١) حتى نتبين ما لها وما عليها.

ولكن الآن وبعد حركة النهضة العلمية المعاصرة، واكتشاف آلاف المخطوطات - الدفينة في مكتبات العالم المتناثرة في بقاع الأرض المعمورة - التي كانت من نتاج أدباء وكُتَّاب وعلماء ومؤرخي العصر العثماني، بدأت الحاجة ملحة إلى إعادة دراسته، وكشف الغموض المحيط به، والمهيمن عليه؛ فبدأت حركة تحقيق التراث المخطوط لهذا العصر في كل فنونه العلمية والمعرفية المختلفة.

وتقوم حالياً مراكز بحثية وعلمية متخصصة لدراسته وتحقيق مخطوطاته مثل: مؤسسة أرسیکا في تركيا والتي تتبع منظمة العالم الإسلامي، وقد قامت بعدة دراسات ومشاريع بحثية متعلقة بهذا العصر، وأصدرت عديداً من البحوث والدراسات والوثائق.

* * *

(١) محمد صبري الدالي: فقهاء وفقراء "اتجاهات فكرية وسياسية في مصر العثمانية"، دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة، ط١، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م، ٩.

أولاً - مقارنة في سيرة الأديب محمد بن قانصوه :

لم يهتم أحدٌ من كُتَّاب التَّراجم والسير، أو أدباء ومؤرخي العصرين المملوكي والعثماني بالترجمة له، أو الإشارة لنشأته العلمية، أو الواقع على دوره في عصره، أو على الأقل تدوين تاريخ ولادته ووفاته، فكان مصيره كأغلب أدباء وأعلام عصره في الإهمال. مع العلم بأن ابن قانصوه كان من أهم أدباء مصر في هذه الحقبة الزمنية؛ فقد مدح السلاطين والحكام والأمراء في كلا الدولتين، ورثى وبكى مصر وحالها في أثناء دخول العثمانيين لها، بشعره الجيد الذي يعبر تعبيراً صادقاً عن خصائص الحياة الأدبية والثقافية السائدة آنذاك في مجتمعه بلغة سهلة.

ولكن نظراً لقلّة المصادر المترجمة له - كما قلنا - فقد أصابني الكد والعناء من البحث في كتب التراجم والطبقات والتاريخ وفهارس الكتب. إلا أنني لم أصل إلى ترجمة شافية له تنير لي الطريق لاستعراض حياته ونشأته العلمية ودوره المعيش في عصره.

ولم يكن أمامي سوى تلمس أشعاره ومواقفه في كتب التاريخ والتراجم التي أشارت إليه من قريب أو بعيد.

وقد أعانني في ذلك كتابٌ واحدٌ لأحد معاصريه ومقربيه، ألا وهو كتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) للمؤرخ والأديب المصري محمد بن إياس، المتوفى ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م. فقد استشهد ابن إياس بنماذج من شعر ابن قانصوه في مواقف عدة، وفي مناسبات متباينة - حتى سنة ٩٢٨هـ جرية - حدثت بالفعل في حياتهما، فكان بذلك مؤرخاً لكل واقعة حدثت في عصرهما.

فحاولت من خلال ما أورده ابن إياس تلمس الجوانب الشخصية والحياتية لابن قانصوه، ومعرفة دوره ومواقفه وعلاقته بمعاصريه.

كذلك أخذت على عاتقي قراءة مؤلفاته الأدبية المخطوطة التي تعاني الإهمال والنسيان؛ لكشف الرؤى عن حياته واستكمال سيرته، لتجلو لنا الصورة أكثر وضوحًا.

وكان المؤرخ ابن إياس معاصرًا لصديقه ابن قانصوه، فكان عندما يستشهد بأشعاره أو يوردها في ثنايا تاريخه يقول: "وقال صاحبنا الناصري محمد ابن قانصوه من صادق".

والغريب في الأمر أن ابن إياس لم يترجم لصديقه، ولم يعرفنا به أو بأسرته. إلا أنه رفع النقاب عن طبيعة علاقة ابن قانصوه بالسلّاطين والحكام والأمراء وأشرف الدولة في كلا العصرين باعتباره شاهد عيان على نهاية العصر المملوكي، وميلاد عصر جديد، وهو العصر العثماني.

ومما أورده محمد بن إياس من أبيات شعرية لابن قانصوه في التهنئة بمناسبة خلع السلطان سليمان الأول (ت ٩٧٤هـ = ١٥٦٦م) على ملك الأمراء خاير بك (ت ٩٢٨هـ = ١٥٢٢م) بخلعة الاستمرارية في تولي ولاية مصر وحكمها في سنة ٩٢٧هـ، يقول: «وفي ربيع الأول سنة ٩٢٧هـ، خلع السلطان سليمان الأول بن عثمان على ملك الأمراء خاير بك بخلعة الاستمرار، وقد زينت القاهرة عشرة أيام، وتكلف الناس بهذه الزينة كلفة عظيمة، وقد حدث فيها من المجون والفسق الشيء العظيم، وقد ابتهج الناس لهذه الزينة غاية البهجة: وقال صاحبنا الناصري محمد بن قانصوه من صادق، يمدح فيها السلطان سليمان بن السلطان سليم شاه ابن عثمان عز نصره:

الحمد لله أضحى الملك مُبْتَسِمًا من بعد ما كانَ أبدى وجهه كظما^(١)

■ التعريف به^(٢):

هو الأستاذ النَّاصري محمد بن قانصوه من صادق؛ كما جاء اسمه في مؤلفاته^(٣)، وفي المصادر القليلة التي ذكرته. فهو ملقب بالناصري، ونُسِبَ أبوه

(١) محمد بن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٥: ٣٨٥ .

(٢) ينظر مصادر ترجمته:

١- محمد بن إياس(ت ٩٣٠هـ=١٥٢٣م): بدائع الزهور في وقائع الدهور.

٢- جورجى زيدان(ت ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م): تاريخ آداب اللغة العربية، دار الهلال القاهرة، (د.ت.)، (د.ط.)، ٣: ٢٩٣.

٣- إسماعيل باشا البغدادي (ت ١٣٣٩هـ=١٩٢٠م): إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تصحيح: رفعت بيلكه الكليسي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ٢: ٤٦٢ .

٤- يوسف رزق الله غنيمه أفندي(ت ١٣٦٩هـ = ١٩٥٠م): نسخة خطية ثمينة من كتاب «السحر الحلال من إبداع الجلال»: مقال نشر بمجلة المقتطف، ج٢ من المجلد ٧٢، فبراير ١٩٢٨م/ شعبان ١٣٤٦هـ، ٢٠١-٢٠٤.

٥- بروكلمان(ت ١٣٧٥هـ = ١٩٥٦م): تاريخ الأدب العربي- العصر العثماني، ترجمة د. محمود مصطفى حجازي، ود. عمر صابر عبد الجليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، ١٩٩٥م، ٨: ١٢.

٦- عمر رضا كحالة(ت ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م): معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ٣: ٦٠٠.

(٣) ينظر ما جاء في عنوان كتبه ومقدماتها حول اسمه، ك: السحر الحلال من إبداع الجلال؛ وموشحه؛ وكواكب الألفاظ السنوية في سماء النسبة الجركسية.

قانصوه لسيدة صادق الذي اشتراه^(١).

ولا نعلم عن تاريخ مولده شيئاً، إلا أننا من خلال قراءة كتبه ودراستها، وجدنا أنه ولد تقريباً في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري؛ فقد ذكر في كتابه المخطوط «مراتع الألباب في مرابع الآداب» أنه أُلّفه سنة ٨٩٨هـ = ١٤٩٣م، وهو شاب.

ومعنى ذلك أنه ولد تقريباً في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري. ويؤكد ما قلناه ما أورده في كتابه المخطوط (السحر الحلال من إبداع الجلال): "أنه كان يحضر دروس أستاذه، وعلامة عصره وأوانه جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ = ١٥٠٥م)^(٢) - رحمه الله".

أما عن تاريخ وفاته فقد صممت كتب التراجم والطبقات والتاريخ وغيرها عن ذكره أو تحديده، إلا أننا - من خلال تتبعنا لما أورده محمد بن إياس في بدائعه؛ من نماذج شعرية لابن قانصوه في مناسبات عدة، والتي تنتهي بانتهاء كتابه - نعتقد أنه توفي في نهاية النصف الأول من القرن العاشر الهجري؛ أي: بعد عام (٩٢٨هـ = ١٥٢٢م).

وحجتنا في ذلك أن آخر ما أورده ابن إياس في بدائعه لمحمد بن قانصوه قوله في مدح الوزير الأعظم مصطفى باشا بمناسبة توليه حكم مصر من قبل

(١) لمزيد من الإيضاح حول هذه النسبة ينظر كتاب (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) للعلامة شمس الدين محمد عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ = ١٤٩٥م)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ٢: ٢٧٠ - ٢٧١؛ ١٠: ٢٧٠.

(٢) ينظر مخطوط المتحف العراقي برقم ٢٧٤، ورقة ٣، ١٥. وحالياً أعمل على الانتهاء من تحقيقه ونشره.

السُّلطان العثماني سليمان الأول في سنة ٩٢٨هـ؛ بعد وفاة الأمير خاير بك (ت
٩٢٨هـ = ١٥٢٢م):

لا تحزني مِصرَ على موت الأمير خَيْرِ بِك
بل افرحني بمِصْرَ طفلي سَتَنْظُرِيهِ خَيْرَ بِك^(١)

وقصة الأمير خاير بك أو خاين بك كما وسمته كتب التاريخ وحوادثه (٢)، واعتلانه لحكم مصر وخيانتته للسلطان المملوكي قانصوه الغوري معروفة ومشهورة، فلا داعي للتعرض لها هنا، ولكن في القطعة الشعرية الماثلة نلمس حالة السُرور السائدة التي وقعت على قلوب المصريين بعد وفاة الخائن لوطنه^(٣)، ولأعماله من سفك الدماء والقتل بحق أبناء مصر، فلم يحزن عليه أهل مصر، بل سعدوا واستبشروا خيراً بالوالي الجديد مصطفى باشا.

(١) ينظر ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥: ٤٩٠.

(٢) ينظر مخطوط الإسحاقي: دوحة الأزهار الإسحاقيه فيمن ولي الديار المصرية، مكتبة فرنسا الوطنية، رقم حفظه ١٨٤٧، ورقة ٩٨. (ملاحظة مهمة هو أن المخطوط مدرج تحت عنوان خطأ بعنوان: كتاب فتوح مصر لابن زولاق) ولكن تيقنت من نسبته الصحيحة وعنوانه من خلال ما ورد في مقدمة الكتاب عن تسميته.

(٣) ينظر ما قاله ابن إياس في مكره وخداعه وحيله في خراب مصر وتسليمها للسلطان العثماني سليم بن عثمان، وخيانتته وقتله للعباد، حتى شق السلطان طومان باي، وكان هذا بترتيبه وتخطيطه. ينظر البدائع ٥: ٤٨٥، مصطفى الصفوي القلقاوي: صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان، تحقيق/ محمد عمر عبدالعزيز، دار المعرفة الجامعية للنشر- الإسكندرية، مصر، ٢٠٠٦م، ٦٥.

- آثاره التي تركها:

أسهم محمد بن قانصوه كغيره من أدباء وكُتَّاب عصره- في حقل الدراسات الأدبية - ببعض المؤلفات التي ما زالت قيد الاحتباس في خزائن المكتبات الخاصة والعامّة، تنتظر من يكشف عنها النقاب للضياء؛ لتكون إضافة جديدة في المكتبة العربية العثمانية. ونذكر منها ما يلي:

١- السّحر الحلال من إبداع الجلال: ما زال مخطوطاً، وأقوم حالياً بالانتهاء من تحقيقه ودراسته. وعن أهمية هذا الكتاب في حقل الدراسات الأدبية والنقدية، وما يمكن أن يضيفه للقارئ والباحث والمكتبة العربية. قال يوسف رزق الله غنيمة أفندي: «فالكتاب نفيس بمواضيعه قد جمع القصائد الحسان، وناصح البيان، وضَمَّ بين دفتيه البدائع والطرف، واللطائف والنكت، وغرر الأقوال، وبدائع الأمثال من نوابغ الشعراء، وأمرأء الكلام، وصاغة القريض، ورواوض القوافي»^(١). وينقسم هذا الكتاب المخطوط إلى خمس مقدمات، وخمسة أبواب.

- أما المقدمات الخمس فهي:

الأولى: في فضل العقل وما وردَ في شرفه من النّقل.

والثانية: في علوم الأدب.

والثالثة: فيما رَوّت فيه الصحابة من الحديث، ومزجت منه القديم بالحديث.

والرابعة: منتخبات من بعض القصائد والمقاطيع الحسان.

والأخيرة: في بعض القصائد ومعارضتها.

(١) يوسف رزق الله غنيمة أفندي: نسخة خطية ثمينة من كتاب «السحر الحلال من إبداع

الجلال»: مقال نشر بمجلة المقتطف، ج ٢ من المجلد ٧٢، فبراير ١٩٢٨م/ شعبان

١٣٤٦هـ، ٢٠٣.

- وأما الأبواب الخمسة فهي:

الأول: في القصائد.

والثاني: الموشحات والمخمسات.

والثالث: الألغاز والمطارحات.

الرابع: المراثي.

والأخير: المقاطيع الشعرية.

- ولهذا الكتاب المخطوط عدة نسخ خطية محفوظة وموزعة في مكتبات العالم استطعت الوصول إليها، والحصول عليها، والعمل على الانتهاء من دراستها، وتحقيقها، ومنها:

أولاً- نسخة محفوظة بالمتحف العراقي برقم ٢٧٤، وعدد أوراقها ٢٤٤ق، وعدد الأسطر ١٣س، ومقاسها ٣١×٢١سم، وكُتبت بقلم نسخي يتميز بالروعة والجمال والتجويد، والضبط بالشكل.

وهذه النسخة خزائنية نفيسة تملكها محمد بن كمال الدين، وقد اشتراها بجامع السلطان محمد خان بمدينة القسطنطينية (استانبول) سنة ١٠٩٢هـ، وأطرها مزخرقة ومذهبة، وصفحاتها مجدولة، وبحواشيتها تعليقات كثيرة، وعليها اسم الكتاب ومؤلفه، وكتبها أبو الفضل محمد بن عبد الوهاب الأعرج السنموطي، سنة ٩١٥هـ.

ثانياً- نسخة محفوظة بمكتبة الأسد الوطنية بدمشق، ورقمها ١٤٤٤٩، وهي مصورة عن مكتبة الأحمدية بمدينة حلب، ورقمها ١١٦٢، وعدد أوراقها ١٧ق، وعدد الأسطر ١٧س، ومقاسها ٢٨×١٨سم.

وكتب بقلم نسخي جيد في ٢٨ رمضان سنة ٩٠٩هـ، ومتقنة ومضبوبة بالشكل، وعليها تملك باسم محمد خضر بن محمد الفرضي سنة ١١١١هـ، وبها مطالعات لبعض العلماء منهم أحمد بن جابر الحنفي، وأسد بن جابر أفندي.

ثالثاً- نسخة محفوظة بالمكتبة الهندية بالمتحف البريطاني، برقم ٨٣٣. وكتبت بخط النسخ، ومضبوطة بالشكل، وعدد أوراقها ١١٩ ق، وعدد الأسطر ٢١ س، وهي مجهولة تاريخ النسخ ومكانه، وغير معلوم اسم ناسخها، وصفحاتها غير واضحة في بعض الأحيان.

٢- مراتع الألباب من مراتع الآداب: مخطوط لم يحقق، ولم يطبع، وهو عبارة عن مجموعة من المختارات الشعرية جمعه وهو في سن الشباب في سنة ٨٩٨ هـ، منه نسخة بالمتحف البريطاني بإنجلترا، رقم (١/٧٧٠)، ومنه نسخة محفوظة بمكتبة الجامعة الأردنية بعَمَّان.

٣- موشح في الغزل، وفيه مدح الأمير خاير بك، وهو مخطوط ضمن مجموع محفوظ بمكتبة برلين، برقم ٢/٨١٧٦، وهو موضوع تحقيقنا في البحث.

٤- له مجموعة من القصائد والمقطعات والأبيات المتناثرة في أثناء كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لمعاصره العلامة الأديب محمد بن إياس، المتوفى سنة (١٥٢٣ هـ / ١٥٢٣ م)، قمتُ بجمعها وإحصائها؛ فبلغت تقريباً ثلاثة وثمانين ومئة بيت من الشعر.

٥- قصيدة شعرية بعنوان: كواكب الألفاظ السنية في سماء النسبة الجركسية، وهي مخطوطة عدد أوراقها (٤) ورقات؛ منها نسخة مصورة بمكتبة مركز جمعه الماجد للثقافة والتراث بدولة الإمارات العربية المتحدة برقم (٢٤٧٣٧٤)؛ عن الأصل الموجود بمكتبة تشسترتي بإيرلندا - دبلن، برقم (٤٢٤٦)، وهي عبارة عن تأريخ لنسب الملوك الجراكسة وأنسابهم، وملوكهم وراثاء دولتهم.

* * *

ثانياً- الأغراض الشعرية عند ابن قانصوه:

تنوعت الأغراض الشعريّة التي طرقها ابن قانصوه، والمدونة في (بدائع الزهور في وقائع الدهور) لابن إياس، فوجدناه يمدح، ويهنئ، ويرثي، ويتهكم ساخراً ممن أساء إليه، أو أساء إلى وطنه، أو أساء إلى أبناء عصره، أو من اتهم بالفساد الأخلاقي والاجتماعي والسياسي، فكان - بروحه المرحة وفكاهته النادرة والمعهودة عند أهل مصر، والنابعة من العادات والتقاليد المصرية الشعبية الأصيلة - يلاحقهم وينال منهم، فلم يترك ابن قانصوه مناسبة من المناسبات الحياتية إلا أدلى فيها بدلوه.

فلما انتهى حكم المماليك بعد مقتل السلطان قانصوه الغوري تحت سنابك خيل العثمانيين في معركة مرج دابق التاريخية، سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م - التي كانت نهاية عهد وحكم للبلاد العربية، وبداية عهد جديد لدولة أخرى صارت فيه الدول العربية عبارة عن ولايات تابعة لها - واعتلاء السلطان العادل البطل طومان باي في سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م حكم مصر، وتمت له المبايعة، قال محمد بن قانصوه في ذلك:

قد ذهب الغوري إلى ربه وذا الذي قـدره الله
والملك لله ومن شاء من عباده للملك ولأه^(١)

ونجد ابن قانصوه يلخص لنا حكم الجراكسة المماليك، ونسبهم وملوكهم، وعزهم وسطوتهم، وظلمهم للعباد والبلاد، وقتالهم مع العثمانيين، وأبان عن موقعة (مرج دابق)، وما وقع فيها بعيون أدبية وشاعرية سجل لنا أحداثها بالتفصيل في قصيدته الشعرية المخطوطة، الموسومة بـ (كواكب الألفاظ السنية في سماء النسبة الجركسية) ومن أبياتها:

(١) ينظر بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس، ٥: ١٠٥.

مذ إلى غسان ينتسب
ملك برق وق وانجلبوا
وهمو من قبل فيه رُبوا
بسروج كُلهما ذهب
من سطا هم والسطا عجب
أرض جذبا بالفتا جذبوا
جوهز أو لؤلؤ رطب
زمن الغوري فاتكبوا
فيه عن طرق الهدى ذهبوا
نظم ذاك العز قد سلبوا
قالها ذا أسلبوا وسلبوا
لقتال الروم وانتدبوا
مانتا ألف وما غلبوا
مع قايتباي فالتهبوا
وبها أعناقهم ضربوا
فيهم من بعد ما غلبوا
خرّبوا من بعد ما نهبوا^(١)

نسل جركس ياله نسب
ملكوا مصرا وأولهم
واستمر الملك إرثهم
وخيول العز تحتهم
وملكوك الأرض ترهبهم
لو أرادوا الراسيات من الـ
وهمو في نظم عزهم
واستمروا في النظام إلى
ذهبوا مذ أظلموا وسروا
وانمحي ذلك النظام ومن
أصل سلب خلفهم
معه ساروا إلى حلب
والتقوا في دابق وهمو
نكروا الأروام نارهم
وسيوف النار في يدهم
قد أراه الله نصرتهم
وأثروا مصرا ودورهم

ويسجل ابن قانصوه دخول السلطان العثماني سليم الأول مصر بعد موقعة مرج دابق، وقتله للمماليك، وعفوه عن بعضهم، وشنقه للسلطان طومان باي (ت ٩٢٣هـ / ١٥١٧م)، وهو في كل ذلك ساخر مما حدث للمماليك، مقتنع بأن

(١) ينظر بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس، ٥: ١٩٧.

التاريخ يعيد نفسه، فمن يظلم العباد، ويستخدم السيف في سفك دمائهم، والتحكم في رقابهم، سيكون مصيره وحته بمثل ما ارتكب من أفعال، فمن يظلم يظلم، ولو بعد حين:

وابن عثمان المظفر من
كان طومان باي آخرهم
ثم صار الملك منه له
وعفا عن بعضهم كرمما
وغدوا من بعض عسكره
ورأوا فيهم عواماً له
وفجا بالعفو نحوهم
رُفِعوا من بعد خفضهم
هكذا فعل الزمان وإن
من يعيش بالسيف مات به
عجبوا والعجب نوقههم
لا عجب إن أكن لسنا
لفظي السحر الحلال طلا
حبذا من زانه حسب

خلفهم والنار تلتهب
ملكاً، أعني الذي صلبوا
بعد أمرٍ وانتهى الطأب
مذله أرواحهم وهبوا
حيث في ديوانه كتبوا
حيث منها قد خبوا وخبوا
بعد صرف درسه القضب
بحروف الجر وانتصبوا
يصف كدر كانه كرب
من تعالى سوف ينقلب
منه ما ذاقوه منذ عجبوا
جرس من أصلها عرب
وعليه نسبتي حبب
حبذا من زانه أدب^(١)

١- المدح والتهنئة:

نجد ابن قانصوه يمدح سلاطين الدولة العثمانية؛ فمدح السلطان العثماني
سليماً الأول لما دخل مصر منتصراً على المماليك قائلاً:

(١) ينظر بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس ، ٥ : ١٩٨ .

أهلاً وسهلاً بمليك الورى
سليم شاه من مليك حليم
من نصر قال لمصر: أبشري
لملكي جاء بقلب سليم^(١)
ولما تولى الملك سليمان بن عثمان (ت ٩٧٤هـ = ١٥٦٦م) سلطنة الخلافة
العثمانية في ذي القعدة سنة ٩٢٦هـ بعد وفاة السلطان سليم الأول، قال مهناً
الأول :

رُيِّتْ مصر وأضحَتْ
بعد خُزِنِ في تهاني
مُنذ غَدَتْ بعد سليم
لسليمان الزماني
وفي ربيع الأول سنة ٩٢٧هـ خلع السلطان سليمان بن عثمان على ملك
الأمرء خاير بك (ت ٩٢٨هـ = ١٥٢٢م) خلعة الاستمرار في ولاية مصر. فقال ابن
قانصوه في هذه المناسبة مادحاً السلطان سليمان بن عثمان، والأمير خاير بك:

الحمْدُ لله أضْحى الملكَ مبتسماً
وكيف لا يكُ يبدي وجهه كظما
وصار بعد سليم لابنه وغدا
وافترَّ عن شنبِ الفتحِ المبينِ فمُ الـ
قد قُطِعَتْ أروُسُ مَخْرِيَّةٌ
وكيف لا وسليمانَ مدبره
وصار من كعبه فينا الغلاءَ رِخا
والنيْلُ قد زاد في هاتورَ من فرحِ
وكان أبطا لِتوتِ بالوفا حَزْنا
ومصرُ من فرحِ في زينةِ رقصتُ
من بعدما كان أبدي وجهه كظما
على سليم وقد أضحي يرى رمما
من السرور به بالبشر ملتتما
نصر العزيز له بالسعد فيه لما
وسيفه مُملى منها البطاح دما
بخاتم الملك منه مذ به اختتما
والخوفُ أمانا بنا والنورُ بعد عما
به وروى أراضي مصرَ بعد ظما
على سليم وما روى البلاد بما
لما رأَتْ لرخاها كعبه علما

(١) ينظر بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس ٥: ١٩٢.

وأصبحت جنّة من سعدٍ خير بك بعد الجحيم ونادى العدل من ظلما
وكيف لا وهو خير قد أجل بها لو لم يكن هو خير قط ما حكما^(١)
ولما تعرض ملك الأمراء خاير بك للمرض الشديد، ثم أشرف على الشفاء،
قال ابن قانصوه مهنتاً بسلامته:

الحمدُ لله زال الهمُّ والألمُ عنا لبرئك والأعدا لها السقمُ
وقلعة الملك أضحى وجهها طلقا من بعد ما كان فيه قد بدا الكظمُ
وأصبحت مصر بعد الحزن في فرح بكم وأمست بثغر البشر تبتسمُ
وقد غدت بلسان الحال قائله الحمد لله زال الهمُّ والألمُ^(٢)
وتميز حكم السلطان سليمان بن عثمان بإقامة العدل بين الرعية؛ فمدحه
ابن قانصوه لعدله بقوله:

كعبُ سليمان كعبُ خير أعني ابنَ عثمانَ دام مُكُةُ
من كعبه مصرُ في رخاءٍ ومن سطاهُ الملوِكُ مِكُةُ^(٣)

(١) ينظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس ٥: ٣٨٥ - ٣٨٦.

(٢) المصدر السابق ٥: ٣٩٣.

(٣) المصدر السابق نفسه ٥: ٤٣٦.

٢- الرثاء:

وكما مدح ابن قانصوه الملوك والأمراء وغيرهم من أعيان المجتمع، فإنه رثى - بلغة حزينة وبأكية - ما آلت إليه الأمور بمصر أم الدنيا، وقد فجع على تبدل حالها؛ ففي عهد الملوك الجراكسة العظام كانت عاصمة الخلافة الإسلامية والحكم، ومركزاً للريادة والسبق في العالم آنذاك، إلى جانب وقوعها ولاية تابعة في عصر العثمانيين، وقد حلّ الخراب والدمار. يقول بأكيًا ومتحسرًا على ما آلت إليه الأمور في بلاده:

يا مِصرَ كُنْتِي ناطِرة	حُسْنَا وَكُنْتِي ناطِرة
أَيْنَ المَحْيَا والجِما	لُ والعِيونُ الباصِرة
أَيْنَ الخِیولُ والسُرو	جُ والثِیابُ الفِساخِرة
أَيْنَ الجِراكِسةُ الَّذي	كانوا أسودًا كاسِرة
وهُم بِأفْقِ مَلِكِي	مِثْل النِجومِ الزَّاهِرة
مِن ذَا الَّذي أزالَهُم	عَنه وَهُم أَكاسِرة
وهُم عِظامٌ وَعَدوا	منه عِظامًا ناخِرة
ودورُهُم صَیِّرها	مِن الخِرابِ دائِرة
مِن بَعْد ما كانتِ قِصو	رًا بالجِمالِ عامِرة
غِیرُ الَّذي المَلِكُ لَه	لا مَلِكُ إلا الآخِرة
يا مِصرُ كَم لَمَلِكِي	قَد خَضَعَت جِبايرِه
يا مِصرُ كِيفَ مَلِكِي	زالَ بِمِلا مِحاِصِره
وكِيفَ ذُقْتِي القَهْرَ بِا	لِذلِّ وَأُنْني القِماهِره
لا شِكَ أَنْني بَعْدَهُم	إِلِی الخِرابِ صابِره

لهفي على جمالكي يا مصر كُنْتِي ناظره^(١)
وكذلك بين الفينة والأخرى نجد ابن قانصوه يتهم ساخرًا من العثمانيين
وحكمهم، ويبكي بكاءً حارًا على مصر بعد تبدل حالها من دولة مستقلة ذات
سيادة وريادة إلى ولاية من الولايات التابعة للدولة العثمانية، ومقرها إسطنبول،
وهنا يتبدى لنا تغير موقفه من حكم العثمانيين، وحينه للحكم المملوكي عندما
كانت مصر هي مقر الحكم:

كَانَ فِي مِصْرَ مَلُوكِ أَظْهَرُوا فِيهَا الْعَجَائِبِ
ذَهَبُوا عَنْهَا وَصَارَتْ دُورَهُمْ فِيهَا خِرَائِبِ
وَهِيَ أَضْحَتْ بَعْدَ عِزِّ قَرِيَّةٍ فِي حَكْمِ نَائِبِ
مَنْ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى قَدْ رَمَاهُمْ بِالْمِصَائِبِ
صَاحِبِ الْمُلْكِ عَظِيمِ مِنْ عِصَاهُ كَانَ خَائِبِ^(٢)

وكما رثى حال مصر وما آلت إليه الأمور لا ينسى أن يرثي محبيه،
وأصدقاءه الفضلاء الذين يتمتعون بالصدق وعراقة الأصل.

ومن ذلك رثاؤه للقاضي محب الدين محمود بن القاضي شمس الدين محمد
بن أجا الحلبي. حيث كان أحد الرؤساء الفضلاء الذين ولوا قضاء الحنفية بمدينة
حلب، ثم وُلِّيَ كتابة السرِّ بالديار المصرية لمدة ست عشرة سنة، كان خلالها
عزيز مصر، نافذ الكلمة، وافر الحرمة.

وهو آخر كُتَّابِ السَّرِّ بالديار المصرية، ولم يجيء بعده من ناظره في
الرئاسة والتعظيم والنظام، ومشى مشى الرؤساء المتقدمين في كتابة السرِّ، وكان

(١) ينظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس ٥: ٢٠١.

(٢) المصدر السابق ٥: ٢٠١.

مولده سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة (٨٥٢هـ). وتوفي وهو يبلغ من العمر ستاً وسبعين سنة، بعد صراع طويل مع المرض.

وكان يكثر الإقامة في داره والناس تسعى إليه في أشغالها، وقد ترجم له محمد بن إياس (ت ٩٣٠هـ) في بدائعه، ورثاه ابن قانصوه بقصيدة رائعة أجاد فيها،
قائلاً:

يكلّ إذا عُدّت فضائله الفكرُ
ومنظرها إذ فيهما النَّشْرُ والبِشْرُ
به مَنْ بَلِيلَ الهَمِّ ضلَّ به الحجرُ
به خُتِمَتْ والسَّرُّ من بعده جَهْرُ
رعى الله محموداً له الحمدُ والشكرُ
وذا القلبُ ممدوحٌ يلدُّ به الذكْرُ
وفي الفخر نعم العلمُ والجودُ والفخرُ
بدائعَ لفظٍ نَظْمٌ إبداعها الدرُّ
بيانَ معانيها لربِّ الحجا سحرُ
عليه وريحاناً وزيد له الأجرُ
يطيبُ بها فيه له اللفَّ والنَّشْرُ (١)

ألا في سبيل الله نجلُّ أجا الذي
فضائله كالزهرِ والزهرِ ذكْرُها كنجْمٍ بأفقِ
كتابة سرِّ الملك ماتت لكونها
لذا كان محموداً وبالقلب ذكْرُه
فمن مثْلُ محمودٍ ومن مثْلُ قلبه
لقد كان كالنعمانِ في العلمِ والسَّخا
له فكرةٌ كانت تمدِّ يراعَه
لعمرك ما في الفضلِ والوصلِ مثلها
أرى الله منه الروحَ روحاً تفضّلا
وصيرَ قبراً ضمّه خير روضة
ألا في سبيل الله نجلُّ أجا الذي

ولمّا أشيعت وفاة السلطان سليم الأول بن عثمان، قال ابن قانصوه راثياً:

في مليكِ السورى سائِمِ
وغدى في الثرى رميَمِ

عظَّم اللهُ أجا ركمُ
عنه قد زال مُلكُه

(١) ينظر بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس، ٥: ٣٠٧.

وفي ربيع الآخر سنة ٩٢٧ هـ، توفي أمير المؤمنين المستمسك بالله أبو النصر يعقوب بن أمير المؤمنين عبد العزيز المتوكل على الله، وكان ابنه غائباً في إسطنبول عندما نفاه السلطان سليم الأول؛ فرثاه ابن قانصوه باكيًا منتحبًا:

من قسيّ الجوى سهامِ الكروبِ
في مرامي الحشا برميّ مصيبِ
بعد عزّ مذآلة للخطوبِ
صيرتُنا من عظمها في لغوبِ
وأين الملوكُ أهل الحروبِ
مثلما قد قضى على يعقوبِ
وتلقّى البلاءَ عن أيوبِ
كمداً من يطيقُ فقد الحبيبِ
مؤمنينَ النجيبِ وابنَ النجيبِ
د مع الحلِّ واللوا والقضيبِ
حلّ شأنَ ذا الزمانِ العجيبِ
غايةً المجدِ للحسيبِ النسبِ
م كفوًا وكان مأوى الغريبِ
واهطلوا عينكم بدمعِ سَكوبِ
دوسَ فضلا فالله خيرُ مُجيبِ
ابنه في هنا وعيشِ خصيبِ
خيرِ رُوحِ بنشرِ بشرِ وطيبِ

رشقَ الموتُ في مرامي القلوبِ
يا لها من سهامِ كربٍ عظيمِ
صيرتُ دورنا خرابًا وصيرنا
يا لها من مذآلة بعد عزّ
أين خيرُ الأنامِ والآلِ والصحبِ
قد قضى الله بالمماتِ عليهم
الذي كُفّ من فراقِ مناه
غاب عنه ابنه فمات بحزنِ
أين عبدُ العزيزِ أعني أميرِ الـ
صاحبَ العهدِ بالخلافةِ والعقبِ
قلبُ صبرًا على الذي جلّ لَمَّا
هاشميَّ أبًا وأمًّا وهذا
الذي كان للأرامِلِ والأيتامِ
يا يتامى ويا أرامِلُ ضجّوا
واسألوا الله أن يُسكّنهُ الفر
وإلى مصرَ أن يجيء قريبًا
صيرَ الله روحَ والده في

وكذا روح من رثاه بهذا إن يمت مثله بأوفى نصيب
وكذا قانصوه أبوه امتاناً منه ما صاح ذو بكاء ونحيب
قائلاً والعيون تجري عيوناً رشق الموت في مرامي القلوب^(١)
ومن خلال عرضنا السابق لشعر محمد بن قانصوه الذي أورده ابن إياس
في تاريخه نلاحظ بعض السمات التي لمسناها في شعره، وهي أن أكثر الأبيات التي
أوردناها تظهر فيها سمة الضعف والركاكة والخطابية، وندرة وجود أحد الألوان
البيانية، ومحدودية معجمه اللغوي (فيما مر من أبيات)، ومعانيه مألوفة مكرورة
ليس بها شيء من الجدة والابتكار؛ حتى فقد الشعر معناه الحقيقي، وجفَّ معينه.

* * *

(١) ينظر بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس، ٥: ٣٨٩ - ٣٩٠.

ثالثاً- موشحة ابن قانصوه المخطوطة في مدح الأمير خاير بك:

قوبل فن الموشحات كغيره من فنون الأدب المختلفة في هذا العصر - من قبل الباحثين - بالإهمال والإجحاف، ونُفِيَ عنه صفة الوجود، رغم نُدرَة الدِّراسات التي تناولته، إلا أن كثرة إطلاق الأحكام العامة كانت هي الشائعة.

ولكن الباحث المدقق يجد الواقع خلاف ذلك؛ فقد لاقت الموشحات في هذا العصر «ترحيباً واسعاً عند المتصوفة، فهي تتناسب مع الإنشاد الصوفي والغناء غير الصُّوفي... فنظم على منواله شعراء العصر العثماني، وحافظوا عليه، ليصلوا حاضرهم بماضيهم، وليصلوا هذا الشكل الشعري الجميل إلى من بعدهم»^(١)، في الوقت الذي يتعذر معه صعوبة حصر أعداد مؤلفي الموشحات في هذا العصر؛ لكثرتهم.

وقد تميزت الموشحات في هذا العصر عن غيره من العصور السابقة عليه بتنوع الأغراض المتناولة، وغير سائغة الاستعمال؛ فقد دخلت فيها أغراض الشعر العربي المختلفة. لذلك «اتسمت.. في معظمها بعودة الارتباط الوثيق بينها وبين الغناء والطرب، فلم تعد الغاية منها منافسة الأندلسيين أو المشاركة، وإن كُنَّا نجد مثل هذا في بعض الأحيان، ولم يعد المراد إثبات القدرة الفنية، وإنما صارت الغاية الأساسية تقديم المادة الغنائية المناسبة للتلحين في مجالس الطرب، أو للتغني بها في مجالس الذكر»^(٢).

(١) عبد الله محمد عيسى الغزالي: الآداب العربية في العصر العثماني، مكتبة دار العروبة - الكويت، ط١، ٢٠٠٢م، ٢٢٢.

(٢) مجد الأفندي: الموشحات في العصر العثماني، دار الفكر - دمشق، ط١، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م، ١٨.

وقد تفاوت فن الموشحات في بلدان العالم العربي من بلد إلى آخر من حيث الكم والكيف، والقوة والضعف، وقد كان للشام فضل الريادة والسبق في هذا العصر، فأصبحت حاملة لواء هذا الفن، حتى أكسبته «مادة غزيرة، وجودة وإبداعًا، ليس هذا فحسب، بل إن الشاميين طوّروا الموشحات، فظهرت لديهم فنون جديدة، انبثقت عنها، وارتبطت بها ارتباطاً وثيقاً»^(١). وليس أدل على ذلك من غزارة نتاج العلامة عبدالغني النابلسي في نظم الموشحات وإجادتها، فقد بلغ نتاجه عددًا كبيرًا، حتى عدَّ «أبرز وشاحي هذا العصر أهمية، إن لم يكن أبرزهم، ليس من حيث إجادته أو إبداعه وخصوصيته فيما نظم فحسب، بل لأنه أكثر الوشاحين المشاركة غزارة موشحات في هذه الحقبة، فقد أحصيت له قرابة خمس وسبعين موشحة»^(٢).

- وقد ألف محمد بن قانصوه عدة موشحات متناثرة في بطون مؤلفاته المخطوطة، ومن بينها هذه الموشحة الفريدة في مدح ملك الأمراء خايز بك (أول والٍ لمصر في العصر العثماني)، والثناء عليه، وعلى دولة آل عثمان وملوكهم.

وقد تمحورت هذه الموشحة في العناصر الآتية:

- ١- التغزل في المحبوب، وإظهار الشوق ولهفته، والحب ولوعته.
- ٢- مناجاة المولى عز وجل، والتوسل بالنبي ﷺ، والاستغاثة به من شر شيطان رجيم.
- ٣- الدعاء لنفسه ولأبيه.

(١) مجد الأندلي: الموشحات في العصر العثماني، دار الفكر - دمشق، ط١، ٢٠١٤هـ =

١٩٩٩م ٢٠.

(٢) المرجع السابق نفسه، ١٨.

- ٤- مدح ملك الأمراء خاير بك، ولأبيه، والدعاء لهم بالهناء والسرور.
- ٥- طلب العطاء والظفر بقضاء حوائجه، كما فعل من قبله الأمراء.
- ٦- الإعلان عن بؤسه وشقائه وفقره الذي أعياه.
- ٧- الدعاء للسلطان سليم الأول العثماني، ولابنه سليمان المعظم.
- ٨- اختتام الموشحة بمطلعها الذي بدأها به.

* * *

رابعاً- النسخة المخطوطة لهذه الموشحة ومنهجي في تحقيقها:

هذه الموشحة مخطوطة محفوظة ضمن مجموع بمكتبة الدولة ببرلين - بألمانيا، تحت رقم ١١٧٦/٢. وخطها واضح، ويكثر فيها تسهيل الهمزة، كما معروف عن أسلوب هذا العصر.

ولذلك قمتُ بضبط النص المخطوط وتصحيحه، وتقويم سقيمه، حتى يخرج صحيحاً وسليماً لغوياً كما ارتضاه مؤلفه. ووضعتُ الزيادات بين معقوفين []، وفسرت الغريب من اللغة بالرجوع إلى المعاجم.

* * *

خامساً- النصُّ المحقَّق:

[عنوان المخطوط]

هذا موشحٌ بديعٌ من نظم سيدنا العبد الفقير
إلى الله تعالى الأديب الأستاذ العلامة الناصري
محمد بن قانصوه من صادق
متغزلاً، وفيه مدح مولانا ملك الأمراء خاير بك
أعزَّ الله تعالى أنصاره بمحمد وآله

[المتن]

[الحمدُ لله المُبدِع] (١)

وَجْهٌ مَنْ فاقَ الظَّبْيَ فِي الدَّعْجِ (٢) فِي سَمَا الحُسْنِ كَبَدْرٍ يَزْغَا (٣)
فَرْفُهُ والشَّغْرُ صُنبُحٌ وَدَجَا
عِشْفُهُ المُفْنَى بِرُوحِي مُرْجَا
لَمْ يَزَلْ جِسْمِي سَاقِيماً وَالْحَجَى
طَائِشاً مِنْهُ بِصُدْغِ أَعْوَجٍ مُنْذُ كَالعَقْرَبِ قَلْبِي لَدْعَا (٤)
لَسْتُ أَنْسَى مُنْذُ لِي جَا (٥) مُؤْنِسِي
مِثْلُ بَدْرٍ بَاهِرٍ فِي حِنْدِسِ

- (١) ما بين معقوفين من وضع الناسخ، كالعبارة الأخيرة في الموشحة (والحمد لله وحده).
(٢) الدَّعْج: السَّوَاد، وقيل شدة السواد. ينظر: لسان العرب لابن منظور، مادة (د. ع. ج).
(٣) في المخطوط: برغا. والصواب ما أثبتته. ففي تاج العروس: لمرتضى الزبيدي، مادة (ب، ز، غ): «البروغ: هو ابتداء الطلوع وظهور الشيء».
(٤) في المخطوط "لدغا"، وهو خطأ والصواب ما في المتن.
(٥) أي جاء إلي مؤنسي.

وَجَلَّ لِي رَاحَةً فِي أَمْسِ
نُورَهَا تَحْتَ الدُّجَى كَالسُّرْجِ لُونَهَا مِنْ وَجْدَتَيْهِ صُبْغًا
يَا رَعَى اللهُ زَمَانًا سَأَفَا
فَقُدُّهُ أَدْرَفَ عَيْنِي أَسَافَا
كُلَّمَا كَفَّفْتُ مَاهَا وَكَفَّافَا
زَمْنَا كُنْتُ أَرَاهُ مُبْهَجِي كُلَّ وَقْتٍ بِحَبِيبٍ مُبْتَغَى
لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَرَى مَا قَدْ مَضَى
عِنْدَمَا قَدْ صَارَ عُمْرِي فِي انْقِضَا
وَبِرَأْسِي بَزْرُقُ شَيْبٍ وَمَضَا (١)
وَفُؤَادِي قَدْ غَدَا فِي وَهَجٍ وَالْجَفَا مِنْهُ عَلَى الْوَصْلِ بَعَى
أَهْ مَا أَضْرَمَ نِيرَانَ الْفِرَاقِ
بِالْهَوَى فِي الْقَلْبِ مِنْ بَعْدِ التَّلَاقِ
وَدُمُوعِ الْجَفْنِ تَجْرِي فِي الْمَاقِ
مِنْ عُيُونِ الْبُكَاءِ فِي لُجَجِ مَاؤُهَا مِنْ زَادِ وَكَالْبَحْرِ طَغَى
يَا عَذُولِي حَلَّ فِي جِسْمِي الضَّنَا
وَبِهِ قَلْبِي أَضْحَى فِي عَنَا
مُدُّ نَفْسِي عَنِّي حَبِي الْوَسْنَا
فَأَرِحْنِي مِنْ كَلَامِ سَمِجِ قَطُّ قَلْبِي غَيْرَ هَذَا مَا ابْتَغَى
يَا إِلَهِي تُبِّ عَلَيْنَا بِالنَّبِي
أَفْضَلَ الْعَالَمِ طَهَ الْعَرَبِي
الَّذِي مَجَّدْتَهُ فِي الْكُتُبِ

(١) ومضا: اشتعل.

مَأْمِنِ الْخَائِفِ غَوِثِ الْمُتَجَيِّ أَفْصَحِ الْخَلْقِ بَلِيغِ الْبُلْغَا
وَاعْفُ عَنَّا مَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِنَا
وَعَلَى طُولِ الدَّوَامِ الطُّفْ بِنَا
وَاجْعَلِ الْإِيْمَانَ مَأْوَى قَلْبِنَا
وَقِنَا مِنْ شَرِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ قَصْدُهُ فِي قَلْبِنَا أَنْ يَنْزَعَا
وَعَنِ الشَّاعِرِ مَنْ فِي شِعْرِهِ
تَنْظُمِ الدَّرِّ أَيَادِي فِكْرِهِ
مُنْذُ يَخْوِيهِ الْحَجَى مِنْ بَحْرِهِ
وَأَبِيهِ قَانِصَوِهِ يَا مُجِي وَاحْبُبْ عِزًّا لَهُمَا لَنْ يَفْرَعَا
وَأِدْمِ عِزًّا مَلِيكَ الْأُمُورَا
ذِي الْعُلَا خَايِرِ بِكَ بَحْرِ الْقِرَى
مَطْلَبِ الطَّالِبِ كُنُزِ الْفُقَرَا
وَأَرْقِهِ فِي الْأَوْجِ أَعْلَى الدَّرَجِ وَاجْعَلِ السَّعْدَ عَلَيْهِ مُفْرَعَا
وَأَرْحَمَنْ وَالِدَهُ وَاجْعَلْ ثَرَاهُ
رَوْضَةً تُجَالِي لَهُ مِثْلَ الْمِرَاهُ
وَاجْعَلْ إِيْحَوْتَهُ الْكُلَّ قِرَاهُ
وَهُوَ صُنْهُ فِي رَوَاحٍ وَمَجِي لِذُرَى الْعُلِيَاءِ حَتَّى يَبْلُغَا

يَا مَلِيكَ الْأَمْرَا^(١) دُمَ فِي هَنَا
وَسُرُورٍ لَا شُرُورٍ وَعَنَا
وَصِلِ الْمَادِحَ وَاطْفِرْ بِالنَّثَا
مُبْلَغًا مِنْكَ لَهُ مَا يَزْتَجِي مَنْ لَهُ كُنْتَ مُنَاهُ بَلْغَا
كَمْ لَهُ فِيكَ وَفِي الْخُنْكَارِ^(٢) مِنْ
مِدْحِ كَالجَوْهَرِ الْعَالِي الثَّمَنُ
وَهُوَ فِيمَا قَالَ فَيُكْمَلُ لَمْ يَمُنْ^(٣)
أَنْتُمَا فِي الْأَوْجِ أَعْلَا مَنِهْجِ^(٤) مَنْ يُبَالِغُ فِي غَلَاكُمْ مَا لَغَا
هَذِهِ قِصَّةُ جُنْدٍ مُنْعِمًا
وَأَجْرِهِ عَادَتَهُ فَضْلًا كَمَا
فَعَلَتْ فِيهِ الْمُؤُوكُ الْكُرْمَا
فَهُوَ فِي هَمٍّ وَعَمٍّ مُوهِجٍ وَهَجَا أَزِيدَ مِنْهُ وَرَغَا
وَكَسُّهُ وَاخْلَعُ عَلَيْهِ وَاعْتَنِمُ

(١) يقصد به "ملك الأمراء خاير بك": وهو لقب وظيفي عرف منذ العصر العباسي، وفي مصر في العصر العثماني استخدم هذا اللقب للإشارة إلى أعلى وظائف الدولة؛ إذ كان يطلق على حاكم مصر. وإن خاير بك هو الذي ولي حكم مصر من قبل السلطان العثماني سليم لقب بلقب "ملك الأمراء" وظل محتفظًا بهذا اللقب حتى آخر أيامه. ينظر مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب للطباعة والنشر - القاهرة، ٢٠٠٠م، ٦٥ - ٦٦.

(٢) الخنكار: معناه السعيد الحظ، استخدم كلقب بمعنى حاكم أو سلطان، وقد استخدم سلاطين آل عثمان هذا اللقب منذ القرن السادس عشر الميلادي على الأقل. وقد دخل هذا اللقب مصر مع الفتح العثماني لقبًا لسلاطين آل عثمان، ولقب بهذا اللقب السلطان سليم الأول، والسلطان سليمان القانوني بصيغة "الخنكار الأعظم". المرجع السابق نفسه، ٣٢ - ٣٣.

(٣) يمن: يكذب.

(٤) المنهج: الطريق.

بَالِدُعَا مِنْهُ إِذَا اللَّيْلُ قَدِمَ
مُخْلِصًا لِلَّهِ لَمَّا يَسْتَتَقِمُ
وَاشْفِهِ مِنْ دَاءِ فَقْرٍ مُزَعَجٍ جِسْمُهُ بِالْهَمِّ مِنْهُ صُيغَا
رَجِمَ اللَّهُ ابْنَ عَثْمَانَ سَلِيمٍ
وَأَبْنَاهُ أَبَقَاهُ لِلْمَالِكِ الْعَقِيمِ
ذَا سُلَيْمَانَ وَذُو مُلْكٍ عَظِيمِ
مَنْ لَهُ طَاعَ مِنْ السَّيْفِ نُجٍ وَسِوَاهُ السَّيْفِ فِيهِ بُلْغَا
لَا بَرِحْتَ الدَّهْرَ فِي عِزِّ مُقِيمِ
بَيْنَ شَادٍ وَمُدَامٍ وَنَدِيمِ
وَهُوَ يَشْدُو وَالطَّلَا فِي كَفِّ رِيمِ
وَجْهُ مَنْ فَاقَ الظَّبْيَ فِي الدَّعَجِ فِي سَمَا الْحُسْنِ كَبَدْرٍ بَرَّغَا
[والحمد لله وحده]^(١)

(١) ما بين معقوفين زيادة من الناسخ.

ثبت المصادر والمراجع والمخطوطات

- ١- الآداب العربية في العصر العثماني: عبد الله محمد عيسى الغزالي، مكتبة دار العروبة- الكويت، ط١، ٢٠٠٢م.
- ٢- الأعلام: الزركلي (١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م)، دار العلم للملايين- بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م.
- ٣- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: إسماعيل باشا البغدادي (ت ١٣٣٩هـ = ١٩٢٠م)، تصحيح: رفعت بيلكه الكليسي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، (د.ت).
- ٤- بدائع الزهور في وقائع الدهور: محمد بن إياس (ت ٩٣٠هـ = ١٥٢٣م)، تحقيق/ محمد مصطفى، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، ط٣، ١٩٨٤م.
- ٥- تاريخ آداب اللغة العربية: جورجى زيدان (ت ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م)، دار الهلال- القاهرة، (د.ت)، (د.ط).
- ٦- تاريخ الأدب العربي "العصر العثماني": بروكلمان (ت ١٣٧٥هـ = ١٩٥٦م)، ترجمة د. محمود مصطفى حجازي ود. عمر صابر عبد الجليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، ١٩٩٥م.
- ٧- دوحة الأزهار الإسحاقية فيمن ولى الديار المصرية: محمد الإسحاقى (ت ١٠٦٠هـ = ١٦٥٠م)، مكتبة فرنسا الوطنية، رقم حفظه ١٨٤٧، ورقة ٩٨، مخطوط.
- ٨- السّحر الحلال من إبداع الجلال: محمد بن قانصوه من صادق، مخطوط المتحف العراقي، رقم ٢٧٤.

- ٩- سلم الوصول إلى طبقات الفحول: حاجي خليفة (ت ١٠٦٨هـ/١٦٥٧ م)، تحقيق/ محمود عبد القادر الأرنؤوط، تقديم/ أكمل الدين إحسان أوغلي، مكتبة إرسیکا، إستانبول- تركيا، ٢٠١٠م.
- ١٠- شعر الثورات الداخلية في العهد العثماني: د/ زينب بيبره جكلي، دار الضياء- عمّان - الأردن، ط ١، ٢٠٠٠م.
- ١١- صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان: مصطفى الصفوي الفلقاوي، تحقيق/ محمد عمر عبدالعزيز، دار المعرفة الجامعية للنشر- اسكندرية، مصر، ٢٠٠٦م، ٦٥.
- ١٢- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: شمس الدين محمد عبدالرحمن السّخاوي(ت ٩٠٢هـ = ١٤٩٥م)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- ١٣- معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة (ت ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م)، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.
- ١٤- الموشحات في العصر العثماني: مجد الأفندي، دار الفكر- دمشق، ط ١، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.
- ١٥- النثر في العصر العثماني في مصر والشام- دراسة تحليلية: محمد فتحي عبد الفتاح، رسالة دكتوراه، مخطوط كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ٢٠١٣م.
- ١٦- نسخة خطية ثمينة من كتاب «السحر الحلال من إبداع الجلال»: يوسف رزق الله غنيمة أفندي، مقال نشر بمجلة المقتطف، ج ٢ من المجلد ٧٢، شعبان ١٣٤٦هـ = فبراير ١٩٢٨م.

* * *